المحاضرة الثالثة عشر: القصة القصيرة جدا والتجريب

التجريب من مخلفات الحداثة التي تسعى للتمرد والتجديد والتغيير، فهو أفق كتابه يصدر عن هاجس التجديد الذي لا يتحقق إلا عبر التحرر من أسر السائد، مما يجعله يمثل شكلا من أشكال تكريس حرية المبدع من خلال ثورته على الأشكال النمطية في الكتابة القصصية، وهذا يؤدي إلى عدم التوقف عند شكل ومضمون محدد بل تنفتح آفاق التجربة القصصية عند كل قاص على حسب نظرته وتجربته التي عاشها والأفق الذي يستشرفه وبالتالي تعدد القراءات وفتح مجالات متعددة للتأويل.فالذي يمارس التجريب إنما يمارس ثنائية الهدم والبناء ويشارك في ارتياد آفاق لم تكشف بعد.

مصطلح التجريب مصطلح حديث واقترن بما هو تطبيقي، ويتطلب ممارسة واستمرار والإتيان بإبداع جديد عن طريق التجريب، وبعد أن تلاشى الثبات ومست التقنية الحركة الفنية التي تقتات من البحث التجريبي، ومفهوم التجريب وتحديده ما زال لحد الآن سؤالا قائما، لأن التجريب أصبح يخترق في كل مرة عوالم جديدة، ويحدث ثورة على الأشكال والأشياء المألوفة، فالتجريب هنا لا يعرف إلا البحث والاكتشاف والتغيير والخلق الجديد لذلك لا يرسى على مفهوم، ويحاول جاهدا التخلص من الثبات.

عرّفه صلاح فضل على أنه : يتمثل في ابتكار طرائق وأساليب جديدة في أنماط التعبير الفني المختلفة، فهو جوهر الإبداع وحقيقته، عندما يتجاوز المألوف، ويغمر في قلب المستقبل

ولذلك نجد الناقد التونسي "الطاهر الهمامي" يتحدّث في هذا الصدد على أن "التجريب ليس مدرسة كالكلاسيكية والرومنسية والواقعية، بل منهج فني يحتاج إليه إبداع المدارس كلها سواء الحديث الذي وعاه أو القديم الذي لم يصطلح عليه، ويظل التجريب في جوهره وفلسفته بحث واختبار أو طلب للأكمل والأجمل، انطلاقا من اقراره بالنقص

والقصة التجريبية هي قصة الحرية إذ تؤسس قوانينها الذاتية وتنظر لسلطة الخيال وتتبنى قانون التجاوز المستمر، فهي دائمة البحث عن أشكال جديدة ترفض الماضي وتستشرف المستقبل.

يرى المؤلف "جاسم خلف إلياس" في كتابه "جماليات التجريب القصصي" أن الاشتغال التجريبي في الكتابة هو احتراف في الرصيد المعرفي للكاتب لخلق غايات جمالية تتعلق بالحراك الإبداعي بين النظرية و التطبيق, ومتغيرات نصية تتوافق مع الواقع الذي تنتج فيه, ولم يغب عن المؤلف الإشارة إلى أن القصة القصيرة نوع سردي يتمرد على الاشتراطات الفنية, فإذا كانت القصيرة قد اتسمت بصفة التمرد فأجد أن القصيرة جدا قد تمردت كثيرا و بجرأة فائقة, و فرضت مكانتها بما حققته من قبول و استمرارية لدى قطبي الكتابة (الكاتب و القارئ), و اقبال البحث الأكاديمي, والنقدي لتناولها و دراسة عناصرها, و الوقوف على الاشكاليات التي لحقت بها, ولم يكن ذلك التمرد خارج الأطر المألوفة أدبيا, بل جاء من أصل التجريب الذي هو بطبيعته اكتشاف لخصائص لغوية, و تطوير لتلك الخصائص في شكل انحرافات عن اللغة المعيارية, و ابتعاد عن الخصائص الفنية المألوفة – كما يصفها محمد كشيك في كتابه علامات التحديث في القصة المصرية القصيرة 1925 – 1980.-

وقد أشار د. جاسم خلف الياس في هذا الكتاب إلى نقطة مهمة ألا وهي تأثير الحرب العالمية الثانية, وانتكاسة 1941, و تقسيم فلسطين, وغيرها من الأحداث الهامة في تلك الفترة اجتماعيا و سياسيا, وما لتلك المؤثرات من بصمات في الحركة القصصية على الجيل الخمسيني, والستيني من الأدباء, وما تلاه من الانتقال بها إلى الغرائبية و الفانطازية ووو... للأجيال اللاحقة.

وبالتالي فلا غرابة أن تنتقل القصة القصيرة جدا أسلوبا, و شكلا, و معيارا مع الانفتاح على عالم الانترنت, والنقلة التكنولوجية النوعية , واتساع مساحة تداول القصة القصيرة جدا كتابة, وقراءة ونقدا, أن تمر هي الأخرى برحلة مشابهة من تعدد الأجيال, و تتأثر بتلك المتغيرات العالمية, وتنتقل بالتالي من فترة التجريب إلى التجديد, ومن ثم الابتكار و التطوير على يد أدباء الألفية الثالثة.

ولعل ما وصلت إليه القصة القصيرة جدا من تغير جذري في الشكل و المضمون مع الاحتفاظ بالعناصر و المكونات التي تبنى عليها, بل أن التغيير الايجابي طال تفسير ماهية تلك العناصر للابتعاد عن الاشكاليات التي صاحبت ظهورها, والتعاطي معها بما تحمله من شعرية و أبعاد ظاهرية وباطنية تؤدي إلى خلق مسارات حكائية جديدة تحترم فكر القارئ, وتجعل من المتلقي شريكا في رسم هيكلية النص بما يمتلك من مهارة **التأويل**, ولا نقصد بالتأويل الاعتباطي, بل التأويل المبني على معطيات النص, حتى تكون مصداقا لقولنا: " إن القصة القصيرة جدا, نخبوية الأركان, كونها ترتكز على ما يمتلكه القاص من أدوات فنية تساهم في تسخير معالم الجمال التقنية, وما يقابله من ناقد بارع, متابع لتطورها, ومتلقٍ حاذق ذو ذائقة أدبية."

في الختام.. إن المواقف النقدية المتفاوتة بين مؤيد و رافض و مشكك للقصة القصيرة جدا الحداثوية, هي مواقف طبيعية يتعرض لها كل تحول نوعي أو تجديد يطال أي جنس أدبي, سرعان ما ستتغير تلك المواقف رضوخا لما يثبته الواقع من خلال الاستمرارية, و الإقبال عليها وظهور العديد من الدراسات البحثية و الأكاديمية, والمنجزات الرصينة المطبوعة التي تحمل ذات الصفات و الملامح.

ملاحظة:

لابد أن يطّلع الطلبة على محتويات المحاضرة التي قُدِّمت حضوريا.

د. أمينة أونيس